لماذا اختار الله تعالى اللغة العربية للقرآن الكريم؟

د. محمد محمود كالو

إن القرآن الكريم هو الذي وحَّد اللهجات العربية في بوتقة واحدة، فتحصنت اللغة العربية، ثم جاء المغول ليخنقوها، وقذفوها في مياه دجلة، إلا أنها لم تختنق ولم تغرقها مياه دجلة العارمة، فهبت اللغة العربية منتصبة على قدميْها.

وجاء (نابليون) يريد محوها ودفنها، فلم يستطع وأعلنت العربية عن وجودها.

وجاءت حركة (الاتحاد والترقي) في العهود الأخيرة من عُمْرِ الخلافة العثمانية، يريدون الكيد منها، فباءوا بالفشل الذريع.

وعقدت مؤتمرات (باريس) لمحو اللغة العربية من أرض الجزائر، فما استطاعوا أن يطفئوا نار حقدهم، هذه اللغة العظيمة، أي شيء أكسبها هذا الخلود والبقاء، لا شك ولا ريب إنه كتاب الله (القرآن الكريم).

ولهذا نفهم كلام العرب الذي قالوه قبل عشرات القرون، بينما الفرنسيون والإنكليز وغيرهم لا يستطيعون أن يفهموا ما كُتب قبل أربعمائة عام، إلا بجهد جهيد، وبالاستعانة بالمعجمات لحل غموض اللغة التي يسمونها (الكلاسيكية) أو (القديمة) بعد أن تغيرت قواعدها، على عكس العربية.

لقد أكد القرآن الكريم حقيقة عروبته في آيات كثيرة، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، وقوله :﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]، وقوله أيضاً: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

ومع تأكيد القرآن هذه الحقيقة فقد نفى أن يكون فيه لسان غير عربي.

قال الإمام الشافعي:

"فأقام [الله سبحانه وتعالى] حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه ـ جل ثناؤه – كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه"[1]:

فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[فصلت:٤٤].

فالقرآن الكريم لم يخرج من مألوف العرب في لغتهم العربية، من حيث المفردات والجمل، فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماته ركبت جمله، ومن قواعدهم صيغت مفرداته، وتكونت جمله، وجاء تأليفه، وأحكم نظمه، فكان عربياً جارياً على أساليب العرب وبلاغتهم، ولكنه أعجزهم بأسلوبه وبيانه ونظمه الفذ، إلى جانب نفوذه الروحي، وأخباره بالغيوب، ومعانيه الصادقة، وأحكامه الدقيقة العادلة، والصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، وهو الكتاب الوحيد الذي تحدى منزله ـ جل جلاله ـ البشر كافة أن يأتوا بمثله.

كما يجب علينا أن نلاحظ أن القرآن الكريم، لم يعبر بكلمة (لغة)، وإنما عبر بـ(اللسان) بمعنى اللغة.

قبل نزول القرآن الكريم كان العرب يتكلمون اللغة العربية بالسليقة والسجية، فصيحة معربة، سليمة من اللحن والاختلال، ولم تكن لها قواعد مدونة، والنحو المدون لم يظهر حتى ظهر نور الإسلام، ونزل به القرآن، فخرج جيل الفتح الأول داعين إلى توحيد الله، مبشرين بدينه، حاملين كتابه بلسان عربي مبين، فانتشرت العربية بانتشار الإسلام، وكتب العلماء المسلمون من غير العرب أكثر من علماء العرب، وبذلك أصبحت العربية عالمية مقدسة، ومنتشرة في كثير من أقطار الأرض.

[1] - الرسالة للإمام الشافعي : ١ / ٤٧.

لقد كان للغة العربية ـ بفضل الإسلام ـ أنصار ومحبون من غير العرب، وكان لها منهم علماء وأعلام عرَّبهم الإسلام، حتى كان منهم أصحاب المؤلفات الرائعة، في قواعد اللغة العربية وفي بلاغة القرآن الكريم.

بل إن أعظم كتاب في النحو العربي هو كتاب سيبويه الفارسي.

ومن أعظم كتب العربية وفقهها (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني الرومي اليوناني.

وأشهر وأوثق مرجع لغوي في العربية (القاموس المحيط) لأبي طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي وهو هندي .

وأشهر كتب إعجاز القرآن الكريم وأفضلها، مؤلفوها من غير العرب، نذكر منهم:

أحمد بن محمد الخطابي البستي الأفغاني.

وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني.

وعبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني.

وغيرهم كثير، ألفوا الكتب في مختلف الدراسات القرآنية، وفروع العربية وآدابها[٢].

وهكذا صاروا مضرب الأمثال، حتى أصبحنا إذا أردنا مدح أحد من علماء العرب، ألحقناه بأحدهم وشبهناه به فقلنا: فلان سيبويه عصره، أو زمخشري زمانه.

لقد أصبحت اللغة العربية، لغة الدين الحق الذي يؤمن به مئات الملايين من الناس خارج الوطن العربي، ويغارون عليها، ويفضلونها على لغاتهم الأولى، ويرون أنها أفضل اللغات وأحقها بالحياة، وهي أقوى وسيلة من وسائل الترابط والوحدة بين العرب أنفسهم، وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمون بها في البلاد الإسلامية، وهي أقوى من رابطة النسب والدم، لأن الدم لا يمكن استصفاؤه بسبب التصاهر والتزاوج، والعربية بما تحمله من رسالة هذا الدين وكتابه، هي أساس العلاقات الحضارية والثقافية والاجتماعية بين العرب والمسلمين، بها تتوحد

٢ ـ انظر دراسات إسلامية: ٩١ منشورات الدعوة الإسلامية العالمية ـ بحث (القرآن واللغة العربية) د . إبراهيم عبد الله رفيدة.

أساليب التفكير والتعبير، ويمكن التفاهم والتعاون على البر والتقوى، ونصرة الإسلام، وهي الحصن الحصين الذي يحول دون احتلال عقول أبنائها بآراء وأفكار وافدة.

ولقد بلغ من حب السلف الصالح للغة العربية، وإعجابهم بعبقريتها، أن قال أبو الريحان البيروني: "والله لأن أُهجَى بالعربية أحب إلي من أن أمدح بالفارسية"[٣] تلك من بعض حكمة الباري ـ جل جلاله ـ الذي أرسل كل رسول بلسان قومه، ولغة أمته التي بعث إليها، لدعوتها إلى الله باللسان الذي تفهم به وليكون لبيان الرسول أثر وتأثير، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤].

ولما كانت رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتمة وعامة، فقد وجب على جميع الناس والأمم الإيمان به واتباعه، ولا يكمل دين المرء إلا بتلاوة شيء من الكتاب العربي الذي أنزله الله تعالى، مما يجعل لغته لغة أتباعه وأمته، وأمة العروبة ليست أمة بالنسب والدم فقط، وإنما من تكلم العربية فهو عربي اللسان والثقافة والانتماء، وقد كان العرب يقولون: كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها، فهم عرب[٤].

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء؟

فقام معاذ بن جبل، فأخذ بتلابيبه ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه، حتى دخل المسجد ثم نودي: إن الصلاة جامعة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد:

أيها الناس إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، فقام معاذ بن جبل فقال: بم تأمرنا في هذا المنافق؟

---

[٣] - نحو وعي لغوي , د . مازن المبارك , الصفحة : / ١٩/.
[٤] - لسان العرب لابن منظور مادة (عرب).

فقال: دعه إلى النار، فكان قيس ممن ارتدَّ فقتل في الردة[٥].

إذن العربية ليست بالولادة ولا بالنسب والسلالة، وإنما بالكلام، فمن تكلم العربية فهو عربي! ولذلك استطاعت العربية أن تجمع تحت رايتها أمماً وأنساباً وأعراقاً ودماء شتى ممن يدينون بالإسلام .

ثم إن علوم العربية الرئيسية، وهي علم اللغة والنحو والصرف والبلاغة بأقسامها الثلاثة، الفضل الأول في نشأتها ونموها واستمرارها يرجع إلى القرآن الكريم، وحرص المسلمين الشديد على المحافظة عليه، والدفاع عنه، وبيان إعجازه، ولما فزع العرب من انتشار اللحن في العربية، هبّوا لتقنين العربية بابتكار النحو لدرء الخطر عنه، وتعليم الداخلين في الإسلام العربية مقعّدة ومبوَّبة، ثم كان ابتكار نقط الإعراب الذي تطور إلى الشكل المعروف (الفتحة والكسرة والضمة والسكون).

ولقد اشترط علماء الإسلام على من يريد تفسير القرآن الكريم، أن يكون واسع العلم بالعربية وأساليبها وعلومها وعلوم الإسلام التي منها علوم القرآن، لاستنباطها منه، ونشأتها في رحابه، واستمرار الحياة لها بحفظه، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[٦].

وقال الإمام مالك: "لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً"[٧].

وقال الإمام الشافعي: "فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟

فالحجة فيه كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

---

٥ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لأحمد بن تيمية الحراني : ١ / ١٦٩.
٦ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٢ / ٤٧٧.
٧ - شعب الإيمان للإمام البيهقي : ٢ / ٤٢٥ برقم / ٢٢٨٧/.

فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمد بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بُعث بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بُعِث بألسنتهم، فهل من دليل على أنه بُعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟

فإن كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبَّع على التابع، وأولى الناس بالفضل باللسان، مَن لسانُه لسان النبي، ولا يجوز _ والله أعلم _ أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله عليهم اتباع دينه، وقد بيَّن الله ذلك في أكثر آية من كتابه، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى:٧].

وقال الشافعي أيضاً : "وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن عَلِمَه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"[٨].

واللغة العربية أيضاً، لغة الغنى والثراء والسعة، قال الإمام الشافعي: "لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجوداً فيها"[٩].

فلا يمكن لأحد إحصاء جميع الألفاظ العربية، مهما بلغ في اللغة شأواً بعيداً، وفي اللغة العربية كثير من الأسماء لمسمى واحد، كأسماء الأسد والحية والعسل، وممن ألف في المترادف، العلامة مجد الدين الفيروز أبادي صاحب (القاموس)، ألف فيه كتابا سماه: (**الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف**)، وأفرد خلقٌ من الأئمة كتباً في أسماء أشياء مخصوصة، فألف ابن خالويه

[٨] - الرسالة للإمام الشافعي : ١ / ٤٥ - ٤٦/.
[٩] - المصدر نفسه : ١ / ٥٠.

كتاباً في (**أسماء الأسد**)، وكتاباً في (**أسماء الحية**)، ذكر أمثلة من ذلك (**العسل**) له ثمانون اسماً، أوردها صاحب (القاموس) في كتابه الذي سماه: (**ترقيق الأسل لتصفيق العسل**)[١٠].

والعجب كل العجب من أولئك الذين يشكون من فقر اللغة العربية، وعجزها عن مواكبة العصر، والتطوُّر العلمي الهائل، ولله در الشاعر العربي حافظ إبراهيم، الذي قال على لسان العربية:

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حَصَاتي ** وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي
رَمَوْنِي بِعُقْمٍ في الشبابِ وليتَنِي ** عقِـمْتُ فلم أجـزَعْ لِقَـوْلِ عُداتي
وسِـعْتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً ** وما ضُقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصْفِ آلةٍ ** وتَنسـيـق أسماء لمخترعات
أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ ** فهل سألوا الغوَّاصَ عن صَدَفاتي؟

كما أن اللغة العربية لغة اشتقاقية، تقوم على أبواب الفعل الثلاثي، لذلك فإن خزائنها من المفردات يمكن أن تزداد دائماً، وكل الكلمات المشتقة من أصل ثلاثي معها المعنى الأصلي، بخلاف غيرها من اللغات، فالاشتقاق من أبرز هذه اللغة وخصائصها، وهو ثابت عن الباري سبحانه وتعالى.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي اسْمًا، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ)[١١].

وعدد الألفاظ المستعملة من اللغة العربية، خمسة ملايين وتسعة وتسعون ألفاً و أربعمائة لفظ، من جملة ستة ملايين وستمائة وتسعين ألفاً وأربعمائة لفظ، بينما نجد غيرها من اللغات الأوربية لا يبلغ عدد مفرداتها معشار ما بلغته مفردات العربية[١٢].

واللغة العربية لغة الفصاحة والبيان، قال الفارابي في (ديوان الأدب):

---

[١٠] - المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي : ١ / ٣٢٠.
[١١] - رواه الإمام أحمد في مسنده برقم : / ١٥٨٩/.
[١٢] - مجلة الفيصل العدد / ٢٥٥ / رمضان ١٤١٨ هـ , اللغة العربية بعض خصائصها , شهادات أجنبية بأهميتها , محمد نعمان الدين الندوي , الصفحة : / ٧٠/.

"هذا اللسان كلام أهل الجنة،وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلى من كل خسيسة، والمهذب ما يستهجن أو يستشنع، فبنى مباني باين بها جميع اللغات من إعراب أوجده الله له، وتأليف بين حركة وسكون حلاَّه به، فلم يجمع بين ساكنَيْن، أو متحركَيْن متضادَّيْن، ولم يلاق بين حرفَيْن لا يأتلفان ولا يعذب النطق بهما أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحس السمع، كالغين مع الحاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق، مثل تاء الافتعال، والصاد مع الضاد في أخوات لهما، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها، والياء الساكنة مع الضمة قبلها، في خلال كثيرة من هذا الشكل لا تحصى"[١٣].

واللغة العربية ناضجة، ومرنة، وينطبق هذا على نحوها ومفرداتها وتراكيبها وسماتها الدلالية، فلا يكون المتكلم بالعربية ملزماً بترتيب عقيم للكلمات، كالمتكلم بالإنكليزية، فإنه يتبع ترتيباً معيَّناً: (فاعل _ فعل _ مفعول به)، فإذا أردت أن تقول: (أكل زيد لحماً) يجب أن يكون الترتيب: (زيد أكل لحماً)، ولا يجوز أن تقول: (أكل زيد لحماً) ولا (لحماً أكل زيد) ولا (أكل لحماً زيد)، بينما يجوز في اللغة العربية أن تقول كل هذه الصيغ، وذلك لوجود علامات الإعراب التي تلحق أواخر الكلمات، وتميز الفعل من الفاعل والمفعول به، ونظام الإعراب هذا يدل على المرونة التي تتميز بها اللغة العربية.

وللغة العربية تأثيرها الفعَّال في اللغات الأوربية، كالإسبانية مثلاً، فإنه يوجد في اللغة الإسبانية ما يزيد على / ٢٥٠٠ / كلمة من أصل عربي، ومعظم الكلمات الإسبانية المبدوءة بأل هي من أصل عربي، وكثير من المصطلحات العلمية الأوربية هي من أصول عربية وضعها العرب، وبقيت في تلك اللغات دون أن يكون لها مرادفات لاتينية أو إسبانية.

وإذا قابلنا اللغة العربية بلغات العالم الأخرى، لوجدناها أنها اللغة السادسة من حيث عدد المتكلمين بها، كما أنها اللغة الأكثر انتشاراً في أفريقيا وغرب آسيا، لكونها اللغة الدينية لأكثر من مليار مسلم.

لقد خاضت اللغة العربية صراعات عنيفة في القرون الأولى للإسلام، وانتصرت عليها، وحلت محلها في ميادين الدين والأدب والعلم، وكادت أن تتعرب الشعوب الإسلامية كلها، إلا أنها

[١٣] - المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي : ١ / ٢٧٢.

لاقت صعوبات جمة من الشعوبية التي تعادي العرب، وتحتقر آدابهم، من أولئك الذين لم يتمكن الإسلام من نفوسهم، حتى تركت اللغة مكانها في مواطن كثيرة من أرض الإسلام، وها هو الشاعر العربي المتنبي، حينما مرَّ بشِعب بَوَّان[١٤] من أرض فارس (إيران)، أحسَّ بغربة اللسان والانتماء والوجود فقال:

مغاني الشعب طيباً في المغاني ** بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها ** غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ** سليمان لسار بترجمان

ولكن العربية بقيت لغة الدين الإسلامي، وعلماء العربية يحرصون عليها ويدافعون عنها، ويتضح ذلك في قول أبي القاسم محمود الزمخشري الخوارزمي، في مقدمة كتابه (المفصل): "اللهَ أحمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين"[١٥].

ولا شك أيضاً أن القرآن الكريم بانتقاله مشافهة متواترة، حفظ للعربية أصوات حروفها، وضبط لها مخارجها وأحكام نطقها، وقامت بين اللغة العربية والإسلام صلات وصلات يكثر تعدادها، ويصعب حصرها، فلا إسلام بلا قرآن، كما أنه لا قرآن بغير اللغة العربية، وليس صادقاً في ادّعائه القومية العربية، من لم يدْعه إخلاصه للغة العربية، وصدقه في حبها، إلى العناية بالقرآن الكريم وهو كتابها الأكبر، ونموذج أدبها المعجز، إنه منها صوته وصورته.

ولقد دوَّت أبواق الباطل في كل مكان، رافعة عقيرتها، وناعقة بالتمرد على اللغة العربية وتفتيتها وتمزيقها ـ والهدف هو القضاء على القرآن ـ لأن القرآن عربي، والعربية لغة القرآن، وارتباط كتاب سماوي منزَّل بلغة بعينها، أمر لا يعرف إلا لهذا الدين وهذه اللغة العربية وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩].

١٤- **شعب بوان**: من أرض فارس وهو أحد المواضع المتنزهة المشتهرة بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه وكثرة أنواع الأطيار اهـ معجم البلدان لياقوت الحموي : ١ / ٥٠٤.

١٥- المفصل للزمخشري بشرح ابن يعيش : ١ / ٥.

لقد شدَّ الإسلام أقواماً غير عرب إلى لغة العرب، ونشر اللغة العربية في بلاد لم يكن لها فيها نصير، ولا للعرب فيها سلطان، ولقد خرجت اللغة العربية من جزيرة العرب مع الفتح الإسلامي فإذا هي لغة أهل الشام والعراق ومصر وغيرها، وإذا بها تتعدَّى كونها لغة دين إلى لغة شعب ودولة.

ولا زال للإسلام أثره في نشر اللغة العربية، والحفاظ عليها في بلاد غير عربية، وأثره يفوق كثيراً آثار المراكز الثقافية التي نراها اليوم منتشرة في بلدان العالم، ثم إن أصحاب هذه المراكز، ينفقون الأموال الطائلة في سبيل الدعاية لمراكزهم وثقافتهم ونشر لغتهم، على حين أن الإسلام يجعل من البلاد التي ينتشر فيها، شعوباً راغبة في تعلم لغته، وما أكثر ما نسمع أصواتاً ترتفع في تلك البلاد، مطالبة بإرسال المدرسين العرب لتعليم اللغة العربية، أو مطالبة بقبول أبنائها في مدارس البلاد العربية، ليتعلموا اللغة العربية.

لقد استهوى الإسلام أقواماً فحبب إليهم لغته، بل كان الفضل عظيماً للإسلام في ظهور عدد لا يحصى من العلماء غير العرب، الذين بلغوا القمة في لغة العرب وعلومها من نحو وصرف وبلاغة، وهذا سيبويه، يقسم ليطلبنَّ علماً يزيل عنه اللحن، فانصرف إلى طلب النحو، ولم يكن من غرضه وقصده تعلم اللغة العربية، وإنما كان يريد علماً يفقهه في الدين.

فقد رووا أن سبب تعويله على الخليل في طلب النحو مع ما كان عليه من الميل إلى التفسير والحديث، فإنه سأل يوماً حماد بن سلمة فقال له:

أحدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رعُف في الصلاة (بضم العين)؟

فقال له حماد: أخطأتَ إنما هو رعَف (بفتح العين)، فانصرف إلى الخليل فشكا إليه ما لقيه من حماد، فقال له الخليل: صدق حماد، ومثل حماد يقول هذا، ورعُف بضم العين لغة ضعيفة.

وقيل: إنه قدم البصرة من البيداء من قرى شيراز من عمل فارس، وكان مولده ومنشؤه بها، ليكتب الحديث ويرويه فلزم حلقة حماد بن سلمة، فبينما هو يستملي على حماد قول النبي صلى الله عليه وسلم:

ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء .

فقال سيبويه: ليس أبوالدرداء (بالرفع) وخمنه اسم (ليس).

فقال له حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما (ليس) ههنا استثناء.

فقال سيبويه: سأطلب علماً لا تلحنني فيه، فلزم الخليل وبرع في العلم"[١٦].

لقد خرجت لغة الدين الحق الذي يؤمن به الملايين من الناس، خارج وطنها الأصلي، ويغارون عليها، ويفضلونها على لغتهم الأولى، ويرونها أفضل اللغات، وأحقها بالحياة، خرجت إلى الدنيا، وأصبحت عالمية مقدسة، لأنها لغة القرآن الكريم، وهي من أقوى وسائل الترابط بين العرب والمسلمين، لذلك استطاعت اللغة العربية أن تجمع تحت رايتها أمماً وأنساباً وأعراقاً ودماء شتى ممن يدينون بالإسلام.

خرجت لغة العرب من لغة قوم إلى لغة أقوام، ومن لغة محدودة بحدود أصحابها، إلى لغة دعوة جاءت إلى البشر كافة، فكانت لسان تلك الدعوة، ولغة تلك الرسالة، ومستودع ما نتج من تلك الرسالة من فكر وحضارة.

لقد عرف العرب كمال لغتهم في القرآن الكريم فاجتمعوا عليه، وأجمعوا على إعجازه، ولو لم يجتمعوا عليه لزاد ما بين لهجاتهم من تباين واختلاف، ولازدادوا بُعداً عن فصاحة لسانهم ووحدة لغتهم، تلك الوحدة اللغوية هي التي نزل القرآن فرسخها وأرسى قواعدها، ولو لم يوطد القرآن لهذه اللغة الموحدة أسبابها، ويرسخ لها بنيانها، لكان لها من لهجاتها القديمة والحديثة وما تتأثر به من عوامل مختلفة، لغات ولغات.

ومما لا شك فيه أيضاً أن القرآن الكريم بانتقاله مشافهة ومتواترة، حفظ للغة العربية أصوات حروفها، وضبط مخارجها وأحكام نطقها، فحرف الجيم مثلاً في الشام غيرها في مصر، ولكن إذا رتَّل الشامي والمصري القرآن الكريم عاد الحرف إلى مخرجه الأصلي الصحيح، وأداه بصفاته وأحكامه.

[١٦] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني : ٤/ ٨٤ ـ ٨٥ والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي : ٢ / ٦٧ برقم: /1202/.

لقد قامت بين اللغة العربية والإسلام صلات وثيقة يكثر تعدادها، ويصعب حصرها، فلا إسلام بلا قرآن، ولا قرآن بغير اللغة العربية، والعربية أقرب الطرق الموصلة إلى فهم الإسلام، وإدراك معانيه ومقاصده من منابعه العربية الأصيلة.

لذا لما أدرك الأذكياء من أعدائنا، أعداء العرب والمسلمين، أن الإسلام اتخذ العربية لساناً له، راحوا يصبون جام غضبهم وحقدهم على الإسلام وذلك بالطعن في اللغة العربية، يريدون أن يهدموا الجسر المؤدي بأهلها إليه، فكم من سهم وُجِّه إلى العربية ولا يراد به إلا الإسلام.

يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها: "يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ... ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم، حتى ننتصر عليهم"[١٧].

إنهم لا يرون الخطر الحقيقي إلا في الإسلام، لأنه لا يوجد مكان على وجه الأرض إلا وقد اجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه، ومنذ أن ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل إن أتباعه يزدادون باستمرار.

إن الاستعمار بعد أن يئس أن تكون له ركائز في أرضنا، فكَّر وقدَّر، فقتل كيف قدَّر، ثم نظر، ثم تقدَّم وتطوَّر، واقتنع أن تكون له ركائز في أفكارنا، ووجد ذلك أسهل عليه وأخفى علينا، وأخذ يبثُّ سمومه وأفكاره، كلام في ظاهره الحرص على الإصلاح، ومن باطنه الحقد المتسعِّر والبغض الدفين.

وواجب العقلاء والمفكرين وحملة الأقلام المؤمنة، أن يؤدوا لهذه الأمة حقها من حصيلة عقولهم وأفكارهم وأقلامهم، إن لكل شيء زكاة، وزكاة العقل والفكر والقلم أن يقول كلمة الحق ويظل مرابطاً يتصدَّى للباطل، وإذا جاهد من يستطيع الجهاد بالنار والحديد، أو بالمال والعتاد، أفلا يجاهد صاحب الفكر والقلم بكلمة حق يقولها؟!

إن ضياء كلمة الحق ليس بأضأل من وهج الدماء المتدفقة من جروح الشهداء.

ثم إن الإقلال من ساعات تدريس القرآن الكريم في مدارسنا، سهم مسموم، موجَّه إلى اللغة العربية، قبل أن يكون سهماً إلى العقيدة الإسلامية، لذلك نرى طفل اليوم يتجاوز المرحلة

[١٧] - قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله , جلال العالم : ٥٠.

الابتدائية والإعدادية والثانوية، ثم يأخذ مكانه في مدرجات الجامعة وهو لا يزال يتعثر العثرات المتوالية في تلاوة القرآن الكريم، ولأجل هذا كله أخذ مستوى إتقان اللغة العربية، وتذوق آدابها ينحط تدريجياً في مختلف مراحل الدراسة[١٨].

إن الذين لا يولون القرآن كبير عناية، في عروبتهم نقص كبير، فبين العربية والقرآن أواصر لا تقطع، وصلات لا تدفع، ولا يطعن في العربية باسم الإسلام إلا شعوبي، ولا يطعن في الإسلام باسم العربية إلا جاهل أو غبي.

هذه اللغة العربية الخالدة والمشرقة، أي شيء أكسبها هذا الخلود وهذا الإشراق؟

لا ريب أن كل عربي سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وكل مسلم عربياً كان أو أعجمياً، يعلم الجاذبية التي سرت في هذه اللغة، فأكسبها الديمومة والبقاء، هذه الجاذبية والروح الجبارة هي القرآن الكريم، إنه قطب الرحى للأمة الإسلامية.

إن القرآن الكريم قد مدَّ سلطان اللغة العربية على منطقة من أوسع مناطق الدنيا، واخترق بها قارات ثلاثاً هي: آسيا وأفريقيا وأوربا (الأندلس)، وجعل العربية هي اللغة العالمية المشتركة المنشودة، فكل مسلم يشعر أن العربية لغته لأن القرآن قد نزل بها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المراجع والمصادر:

١- **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، لأحمد بن تيمية الحراني.

[١٨] - انظر نحو وعي لغوي، د . مازن المبارك : ١٢٥ بتصرف.

٢- **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي.

٣- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** للخطيب البغدادي.

٤- **دراسات إسلامية**: ٩١، منشورات الدعوة الإسلامية العالمية . بحث (**القرآن واللغة العربية**) د. إبراهيم عبد الله رفيدة.

٥- **الرسالة** للإمام الشافعي.

٦- **شعب الإيمان** للإمام البيهقي.

٧- **قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله**، جلال العالم.

٨- **لسان العرب**، لابن منظور.

٩- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** للسيوطي.

١٠- **مسند الإمام أحمد**.

١١- **معجم البلدان** لياقوت الحموي.

١٢- **المفصل للزمخشري** بشرح ابن يعيش.

١٣- **نحو وعي لغوي**، د . مازن المبارك.

١٤- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأحمد بن محمد المقري التلمساني.

١٥- **مجلة الفيصل** العدد /٢٥٥/ رمضان ١٤١٨هـ، **اللغة العربية بعض خصائصها، شهادات أجنبية بأهميتها**، محمد نعمان الدين الندوي.